- ٦ -

الدَّاعيَةُ السَّجِينُ

نعود الآن إلى أعظم سجين - عليه السلام - الذي سوف يعبر الرؤيا لمّا سأله الفتيان الاثنان الساقي والخباز، وسوف يعرض عليهم الرؤيا الصحيحة وتفسير المنام، لكن بعدما يقدم لهم رسالة بين أيديهم، التفسير قد يُؤخره؛ لأن الساقي رأى أنه سقى ربه، يعني: أنه يسقي الملك خمرًا؛ لأنه كان يسقي الملك خمرًا فسجنه الملك، فرأى في السجن أنه يسقي ربه يعني: الملك خمرًا، وقال الخباز: إنه يرى في المنام أن على رأسه خبزًا تأكل الطير منه، فقبل أن يفتي هذا ويفتي هذا، ويتحدث لهذا وهذا، ولذلك نجده قدم رسالة عالمية، أكبر قضية في التاريخ، أعظم مسألة عرفها الناس أجمعين، قال: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ يقول: يا صاحبي السجن رسالة التوحيد هي أعظم رسالة أعرضها على الناس، وأريد أن أقدمها للبشر، ﴿**أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾، قبل: أن أُفتيكم في الرؤيا، هل الآلهة المتفرقة والأصنام المختلفة خير أم الله الواحد القهار؟ هل الأرباب التي تتجهون إليها من نجم وشجر وكوكب وإنسان وآلهة هي أعظم أم الله الواحد القهار؟ من الذي يخلق؟ من الذي يرزق؟ من الذي يهب؟ من الذي يصور؟ من الصانع؟ هو الواحد القهار، يا صاحبي السجن، قبل أن أفتيكم في هذه المسائل إن حصلت، وإن

لم تحصل، أنا سوف أسألكم سؤالاً، أسألكم بعظمة الله وجلاله أأرباب متفرقة؛ لأنهم كانوا وثنيين يعني: كل مَنْ في القصر في مصر يعبد الأوثان والأصنام والآلهة، كانت لهم نحوت يسجدون لها من دون الله، فيوسف -عليه السلام- يدعوهم الآن وهو في الزنزانة من وراء الحديد في القضبان، وهذه رسالة المسلم لا ينساها أبدًا ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ويقول: قبل أن أفتيكم أوقفكم أمام التاريخ، وأمام عقولكم، وأمام نفوسكم، وأمام مشاعركم، أسألكم سؤالاً عظيمًا: أأرباب متفرقون حتى الأرباب التي تعبدونهم مختلفون ومتنازعون فيما بينهم، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ فليس هناك إله يعبد ولا مدبر إلا الواحد الأحد، وقال: أأرباب؛ لأن الرب هو الذي حفظ الخليقة ورباهم بأنعمه جل في علاه، فهو يستأهل الألوهية والعبودية، لا إله إلا هو، قال: والأصنام سخافة وخرافة.

قال الترمذي: هذه الأرباب خير أم الله الواحد القهار، وانظر إلى انتزاع الكلمات الآن في القرآن، لم يقل: خير أم الله؟ لأن الواحد القهار اسمان عظيمان جليلان بصفتين عظيمتين جليلتين لله الواحد القهار، أما الواحد فلا ثاني له ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، قال: الواحد لتفرده بالبقاء، وكتب على غيره الفناء، وقيل: ذهب بصفات الكمال والجلال، وقيل: كتب لنفسه سبحانه القدسية، وكتب على غيره العيب. وقيل: لا يشبهه شيء من خلقه، ولا أحدًا من خلقه يشبهه، فليس في ذاته شيء من مخلوقاته، ولا في

مخلوقاته شيء من ذاته، تبارك الله العلي العظيم، قال: هذه خير أم هذه الأصنام التي تعبدون؟ والجواب معروف، قال أهل العلم: هل هي خير في قوتها؟ الله أقوى وأجل، وفي غناها؟ الله أغنى، وأفضل في بقائها؟ البقاء لله. في قدسيتها؟ القدسية لله، في القهر والجبروت، فالقهر والجبروت لله الواحد الأحد، فهو خير سبحانه.

لذلك قال يوسف: ﴿**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم**﴾ فالأصنام التي تعبدونها أنتم وآباؤكم كلها كذب لا تنفع نفسها، فأنتم منحرفون، وآباؤكم منحرفون، أنتم وآباؤكم جهلاء، أنتم سفهاء تسجدون لحجارة وتلتجئون إليها، انظر إلى الدعوة الحقة يدعو في الزنزانة، لا يدعو وهو مسرور ومعافى وتجلب له الخيرات، يدعو لله من وراء القضبان وهو مسجون، ويدعو إلى التوحيد، قال بعض المعلقين من المعاصرين: الله أرسلها صرخة مدوية عالمية ربانية توقظ الأموات والنيام، قال: ما تعبدون من دون الله إلا أشياء ما لها مسميات، ربٌ هذا لا يملك ضراً ولا نفعًا ولا حياة، هذا ربٌ دجل وكذب وخرافة لا صدق لها ولا قرار، أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم.

قال: ﴿**سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ**﴾، ما أنزل الله بها من حجة، ولم يأذن بها، ولم تأتِ بها رسالة من الله لأحد، أن اعبدوا هذه الأصنام، كيف تعبدون هذه الآلهة؟

ولذلك رجع يوسف -عليه السلام- بعد هذا الدرس الحي في التوحيد بعد هذه الرسالة الربانية في العالم، وصل صوته -عليه السلام- وصلت رسالته الآن. ونحن نقولها الآن في جزيرة العرب بعد سنوات وصلت رسالته -عليه السلام- خرجت من الزنزانه، ومن السجن، خرجت من وراء القضبان، خرجت من وراء الجدران بدعوة لا إله إلا الرحمن إلى بني الإنسان والجان، فوصلتنا هذه الليلة، فإذا يقيم هو الحجة مع محمد - عليهما الصلاة والسلام - على هذه الرسالة، قال: ﴿**يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**﴾، قال تعبيرًا: فسوف يرضى عنك الملك وترجع لمهنتك، وسوف تعصر العنب، وتسقي الملك، قال: ترجع لما أنت عليه، قال بعض الناس: يخلق الله ما يشاء بعضهم للعلم، وبعضهم للعبادة، وبعضهم للإنفاق في سبيل الله، وبعضهم لحسن الخلق، وبعضهم لإنكار المنكر، وبعضهم يعيش سبعين سنة يضرب على العود، يموت حتى يأكله الدود، ويسكن اللحود، وبعضهم يسكر ويمكر ولا يعرف الواحد القهار.

قال: ﴿**أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا**﴾، وفيها أن الرؤى تُعبَّر للناس إذا لم يكن فيها مضرة، رجل عالم فتعبَّر مثل ما سمع المعبر، وأما الآخر الخباز؛ فلأن التهمة أعظم، وهي اتهامه باغتيال العزيز ملك مصر فصارت العقوبة الإعدام، الصلب، وأما الخمار فتهمته سهلة فعفى عنه فرُد إلى مهنته، ﴿**قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ**﴾، صدقوا أو لا تصدقوا هذا الأمر الذي أطلعه الله عليه؛ لأنه نبي؛ فأصبحت عبارات القرآن قواعد من البلاغة والبيان تنشر وتحفظ بين الناس.

وذلك لأن الله اطلعه عليها، وقيل: لم يكذب في رؤيا عبرها -عليه السلام- لأنه من أصدق الناس قاطبة، فالأنبياء لا يكذبون لا بالجد ولا بالهزل.

ثم قال: للساقي الذي سوف ينجو من الإعدام ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ يقول: يوسف -عليه السلام- عرف أن الآخر سيعدم إذًا لن يوصيه، ولم يكلمه بالرسالة؛ لأنه سيذهب إلى المشنقة، أتى إلى هذا الساقي الذي سوف يسلم وينجو وقال له: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، قال: أحد العلماء والله يكفي من عذاب السجن أن يوسف -عليه السلام- يقول: اذكرني عند ربك، ويكفي هنا أن نحس بالمعاناة التي كان يعيش فيها يوسف -عليه السلام- وهو النبي المعصوم، ومع ذلك فهو صابر ومحتسب، يقول: للخمار لا تنس الأخوة التي بيننا، إذا ذهبت عند الملك أن تشفع لي عند الملك، لا تنساني واتقِ الله فيَّ، يقول أهل العلم: إنه قال: اذكرني عند ربك، يعني: عند سيدك العزيز، قال بعض المفسرين: إنه أُوحِي إلى يوسف أن تقول: اذكرني عند ربك، ولا تُخبر أني ربك، تذكرني فقط، وإلا لتلبثن في السجن بضع سنين جزاء هذه الكلمة، مَن الذي يُذكرُ في الشدائد؟ الله، مَنِ الذي يجلي الكربات؟ الله، مَنِ الذي يحل الأزمات؟ الله، عبد إنسان فقير هزيل مفلس، تقول له: اذكرني عند ربك، لا يفتح الأقفال إلا الواحد ذو الجلال، ولا يصلح الأحوال إلا الواحد ذو الجلال، ولا يحمل الأثقال إلا الواحد ذو الجلال، ولا يسهل شديدات الأعمال إلا الواحد سبحانه، فقال

أهل العلم: غفر الله ليوسف، هذا ابتلاء من طبيعة البشر، وله أن يقول ذلك، ولكن مقام النبوه العظيم. أرسلها لله في السحر، وأرسلها بسهام دعاء السجود، قال: ﴿**اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ**﴾، فأوحى الله إلى يوسف -عليه السلام- تقول للمسجون: اذكرني عند ملك مصر. وتنساني، أن ملك الأرض والسماء، لماذا لم تذكرني وذكرته؟ وما دام أنك قلت هذا إذًا لا يَفْرّجُ عنك هذا العام، إذًا بضع سنوات. قال بعضهم: تسع سنوات أو سبع سنوات، قال ابن الجوزي في صيد الخاطر: اتقِ الله لا ينحرف قلبك عن الواحد الأحد فتلبث في العذاب المهين بضع سنوات من كلمة واحدة، فأدَّبه ربه فجعله يبقى في السجن بضع سنوات، وإلا فإن الله يقول: «**أنا جليس من ذكرني، من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه**».

قال: ﴿**فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ**﴾، فلما قال له يوسف بالأخوة التي بيننا وأصبحنا بالسجن أصحاب.

يقول النبي يوسف -عليه السلام-: كنا في المشقة مَعًا، عشنا أيامًا سعيدة، ونمنا وراء الحديد، تآخينا وتعارفنا وصارت لنا ذكريات، فإذا إذا وصلت إلى هناك فقل للعزيز شيئًا عني، أو كلمة عن ظلمي، تقول له: عندنا شاب اتهم بتهمه غير صادقة وهو معبر الرؤى وفيه خير، نطلب منك أن تطلقه من الحبس. فأراد الله أن يخبره ويلقنه أنه لا يطلق المحبوس إلا هو، ولا يفك الأسير إلا هو، ولا يقع في الأرض شيء إلا بإذن الله، فأنساه الشيطان ذكر ربه،

اشتغل الخمار بعصر العنب والتوت والتمر ونسي الوصية، ونسي الصحبة، ونسي من في السجن (يوسف)؛ لأن الواحد الأحد أراد هكذا، لا يذكر الملك أولاً بل يذكر الله سبحانه.

قال: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾، أي: أنسى الشيطان الخمار ذكر يوسف، ﴿فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ صابرًا محتسبًا، وصبر يوسف -عليه السلام- وكان يقوم قانتًا عابدًا متبتلاً إلى الله خاشعًا، يرسل الدموع وَيتوسل إليه سبحانه. قال الذين معه: ما رأينا أعبد منه، وما رأينا أبرك منه علينا؛ لأنه نبي -عليه السلام- فالله -عز وجل- يقلب الأمور في قضايا لصالح يوسف، فهو مسبب الأسباب جل في علاه، إذا أراد شيئًا سهل له الأسباب.

نام العزيز في ليلة فرأى سبع بقرات خرجت من البحر، هكذا قال بعض المفسرين، وخرجت وراء البقرات السبع، سبع بقرات هزال ضعاف عجاف تطاردهن، فتمسك البقرة الضعيفة البقرة السمينة من ذنبها فتلتهمها فتدخلها في بطنها، فالضعاف أكلت السمان، حتى أكملتها في المنام، ثم نظر وإذا سبع سنبلات خضر بجانبه، وسبع سنبلات يابسات بجانبها، فرأى الملك رؤيا عجيبة -سبحان الله- من مشهد، تخرج بقرات من البحر سمينة، ثم تأتي من ورائها بقرات هزيلة ثم تأكل الهزيلة السمينة إلى أن تكمل أكل السبع، ورأى سبع سنبلات خضر وبجانبها سبع سنبلات يابسة، أتى الصباح فجمع وزراءه ومستشاريه وأهل الرأي، قال: يا أيها الملأ، يعني الأشراف ﴿أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، يقول: فسروا

لي هذا الأمر، أنا البارحة رأيت كذا وكذا، إن كان عندكم رؤيا، إن كان عندكم تفسير، إن كان عندكم تعبير، أسألكم أن توضحوا هذا الأمر، وهم ليس عندهم رؤيا، وليس عندهم فقه في الرؤيا، فالله -سبحانه وتعالى- جعل هذه الرؤيا وسيلة ليحتاجوا إلى يوسف، وتكون تلك الرؤيا سببًا في خروجه من السجن وملكه لمصر.

يقولون: أفتوا ثم نفوا عن أنفسهم، ثم اعتذروا ﴿**وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ**﴾ لم يسبق لنا تعبير الرؤى، أجل الآن حول الله القضية إلى يوسف -عليه السلام- فسوف يُؤْتَى ويسأل عنها، ﴿**وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾ بعد ما سمع الرؤيا، تذكر أنه كان له صاحب أكل معه وشرب معه، وتحدثا معًا، ودعاه إلى الإيمان، وأحسن إليه علمًا ودعوة وصدقة، كان إذا أتاه شيء في السجن تصدق عليه، وأطعمه وكساه وأهداه إياه، وعبَّر لهم الرؤيا، ومع ذلك نسيه، فلما سمع الرؤيا تذكَّر يوسف قال: ﴿**وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ**﴾، يعني: بعد سنوات طويلة، ﴿**أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ**﴾، أيها الملك: عندي صديق في السجن حبسته قديمًا اسمه (يوسف) يعبر الرؤى فتأتي مثل فلق الصباح، فأرسلني آخذ الرؤيا منك، وأعرضها عليه، فهذا الذي يمكن أن أقول، فعرضها الملك فأخذها منه هذا الساقي، وذهب إلى يوسف ليسأله عن هذا السؤال وعن هذه الرؤيا؛ لتكون هذه الرؤيا سببًا للإفراج والعفو عن يوسف -عليه السلام- وإخراجه من السجن، ليمهد الله له ملك مصر، ويكون نبيًا له رسالة يرسلها للعالم، هي رسالة التوحيد التي ذكرها في أول القصة.